قصة قصيرة

حبّ أخرس

حسب الله يحيى

لم يكن يشغلني أمر أكثر من الوصول إلى مسكني في أقرب وقت. لا لمسألة عاجلة متعلّق حسمها بالوقت؛ وإنما لأنني متعب، متعب تماماً بعد يوم مرهق من العمل العضليّ.

انتظرت وصول الحافلة، وطال انتظاري.. حتى بات أملي في وصولها مستحيلاً، إلاّ أنني بقيت أنتظر، لعدم وجود سبيل آخر أتبعه للوصول إلى مسكني البعيد عن مركز عملي.. سوى الانتظار.

كانت الجموع تزداد عدداً كلما طال أمد وصول الحافلة.. ولم يكن يعنيني سوى الوصول والاستلقاء بعد تناول وجبة طعام فقيرة كما هو الحال كل يوم..

كان الجو حاراً، ولم يكن الهواء الثقيل الجاف يريد أن ينسحب رغم أن الشمس كانت تنسحب بهدوء، تاركة السماء ضائعة بين ضوء منكسر، وعتمة مضلّلة لا تعرف مستقرّاً لها.. بسبب سحب ترابية كانت تنتشر وتساهم في ثقل الجو. ورحت أراقب في فضول أكرهه.. وطأة الأنتظار على الناس المحيطين بي..

وفجأة تعلّق نظري بوجه فتاة.. كانت تحدِّق في ساعتها مراراً، وتتلهَّف إلى حافلة قد تصل..

كان الكل يعبِّرون عن الاستياء والضجر ويتوسَّلون صبرهم في صبر الآخرين.

وكانت وحدها.. لا علاقة لها بمن حولها.. وإنما كانت عيناً على عقارب الساعة، وعيناً على حافلة تجيء.. و.. ربَّما لا تجيء أبداً. كرهت فيّ فضولي وأنا أترقَّب قلقها ومرارة انتظارها. وشغلت نفسي بها.. وانصرفت أرقبها بدقّة غريبة وانتباه لا أعرف سرّه.

كانت سماتها تعبِّر عن وقار وسماحة وطيبة.. وقار امرأة أكبر من عمرها.. وسماحة تستقبل المحن بصبر، وطيبة تعكسها ملامح وجه رحب متفائل.

لم تكن هناك علامة تدلّ على ما هو خارج المألوف في مظهرها.. فستان هادىء الألوان يمتدّ.. ليصل إلى القدمين إلاّ قليلاً.. ويوضح على نحو غير مقصود أن جسد الفتاة معافى، وعلى قدر من التناسق والجمال والبهاء.

وجه عذب جذّاب.. ويمكن أن أقول أخّاذ.. يوحي بألفة سريعة، ورغبة ملحّة في الانشداد إلى صاحبه.

وقد حاولت بعض الوقت أن أزيل رغبتي الملحَّة في إمعان النظر فيها. إلاّ أنني ألفيت نفسي قد ارتاحت، وأن بعض تعبي قد خفّ، وأن ترقبي الملحّ للحافلة لم تعد له أهمية قصوى... لكن شيئاً من الحرص على مجيء الحافلة قد تحوَّل أمنية.. وتوسَّلت الزمن حتى لا تتأخَّر تلك الفتاة عن وقت يبدو أنه يلحّ عليها..

و.. تصل الحافلة، واهنة كأنما تريد رجاء الراحة منّا.. نحن الذين أمضينا أوقاتاً طويلة ونحن نترقَّب وصولها.. فإذا هي حافلة متعبة تطلق أصواتاً.. أعلى من الصراخ..!

ولا تترك الفتاة ولا جمهرة المنتظرين فرصة للحافلة ولسائقها لأخذ أنفاسهما.. وإنما يعجِّلون جميعاً لاتخاذ أقرب مقعد يصلون إليه ويظهرون في جلسة سلطانية يحسدهم عليها أولئك الذين يعانون زحمة دخول الحافلة.

تتّكىء الفتاة على مقعد... ولا أخفي رغبتي الملحّة في الجلوس إلى جوارها لا لأمر أخبّئه في قرارة نفسي نحوها وإنما هي قوّة الجاذبية تشدّني إليها..

«مرحباً».. قلت كلمتي وجلست.. ولم أتلقَّ جواباً.. كما لم أكن أظنّ فيّ الجرأة على البوح بكلمة «مرحباً» أصلاً.. فأنا لم أُعِدّ لها ولم أقرّرها.. لكنها انطلقت على لساني بطريقة فضولية. لم يبدُ أن الفتاة قد سمعت كلمتي.. لا لأنها لم تجب فحسب، وإنما لأنها لم تلتفت إليّ...

ورضيت بصمتها، وبرَّرت الصمت بالوقار والخجل.. وخجلت من نفسي، ورحت أمارس ضغوطي عليها خوفاً من حركة توحي

للفتاة أنني أمارسها مثلما يفعل بعض الشبّان في مثل هذا الحال. . . وارتضيت لشخصي مراقبتها بدقّة، ومتابعة كل حركة أو همسة أو التفاتة قد تبدر منها. . إلّا أن شيئاً من كل هذا ظلّ غائباً، كأنما لا تعرفه، وأنه ليس في طبعها. . . واحترمت فيها جلستها الواثقة. .

وحين همّت بمغادرة الحافلة تلطّفت بابتسامة هادئة. . هي أشبه بالأمنية من الرجاء.

فتركت لها فسحة كبيرة لتمرّ. . . وأحسست وهي تنزل السلّم بأنني أعاقب ذاتي حين لا أتبعها. . وطيّبت خاطري برجولة أحترمها فيّ، ولا أريد أن أبدّدها في ملاحقة فتاة لا أعرف عنها أكثر من كونها كائناً جلستُ إلى جانبه مصادفة، وليس عليّ بناء قصور من الأمنيات على جلسة عابرة في حافلة. .

قلت سأنسى كل شيء. . ذلك أنه لم يكن هناك شيء بيني وبينها أبداً. .

وصلت إلى مسكني وأنا أحسّ بالراحة. . راحة بال، وراحة جسد، وتناولت طعامي بشهيّة. . فرحت لها أمي. .

ومرّ الوقت كما لم أعهده. . وقت ظلّ فيه خيال تلك الفتاة يلاحقني. وعندما حلّ الليل، كانت نافذة الغرفة تقترن بنافذة الحافلة. زجاج الأولى يكشف عن عتمة ليل ثقيل. . وزجاج الثانية يكشف عن طبيعة، وإن كانت مصحوبة بسحب ترابيّة، إلّا أنها كانت توحي بحركة الناس وتعاقب منظر الأشجار على بعض الأرصفة. . . وخيّل لي أنّ زجاج الحافلة يأخذ مني المنظر الجانبي لوجه الفتاة ويمتصّه، مرتاحاً إليه. .

خيل إليّ، وأنا أعجب لما أتخيّله. . أنّ المسألة في جملتها عابرة وأنني سأنساها حال الغفوة الأولى. ومرّ وقت. . لم أكن أحسّ فيه إن كان نوماً أو يقظة. . ساعات عبرت. . كانت فيها صورة الفتاة راسخة في الذاكرة وفي العينين وفي الإحساس بأن أمراً مجهولاً قد دخل بلا استئذان في حياتي الخاصّة. .

و. . مرّ يوم وآخر. . ورابع. . كانت فيه صورة الفتاة تغيب، إلّا أن التخطيط الأول لصورتها لم يغادرني.

قلت إن أياماً لاحقة ستنسيني وجهاً عابراً مررت به، مثل كل الوجوه التي نمرّ بها جميعاً كل يوم.

وفي صباح بهي. . طالعني وجهها فجأة. .

فوجئت. . المفاجأة أذهلتني. .

كنت أريد أن تراني. . فقد تعرفني. . أنا الذي قلت «مرحباً» وجلست إلى جوارها. .

ثم ماذا؟

سخرتُ مني. . سخرتُ من الآخر الذي في داخلي يضلّلني، ويكذب عليّ. . بل ويهيني ويحاول النيل مني. . يلهيني عن تعبي. . ويفضح تستّري الذي أُلزم شخصي به.

. . وجدت مقعداً شاغراً. جلست.

لم أرها. . الشمس عكست مرآها في زجاج النافذة. عشقت الصباح والنافذة. .

كان وجهها الرحب. . يجعلني أتعلّق به. . ذلك الوجه الذي يحمل أسراراً أجهلها. .

وجه فيه عذوبة ولمحة شكوى.

وجه صريح. . لا تشكّله الألوان، وإنما ترسمه الطبيعة رسماً مليحاً محدّد المقاييس. . مزّيناً بشعر كثيف أشبه بتلك الأشجار التي تتدلّى أغصانها. .

غادرت الحافلة. . فغادر فرحي المكان. .

هممت بأن أترك مقعدي وأتوجّه إليها. . لكنني صرفت هذا الأمر عن بالي. . وسافرت مع خيبتي، حتى وصلت إلى مكان عملي. .

كان النهار طويلاً. . ومسألة أن أصل إلى نهاية لهذا النهار بدت أمامي مستحيلة. .

حتى إذا أقبل المساء كنت أقف كما هي عادتي في المكان المخصّص لوقوف الحافلة. . . ولم أكن أمنّي نفسي برؤيتها، فأنا أعرف أن حظي سيّء في تحقيق الأماني.

إلّا أن الوجه النوراني المبارك. . أقبل، وصار قبالة وجهي ودون أن أدري، انشرح صدري، فابتسمت. . وفاجأني أن تلقى ابتسامتي قبولاً عندها. . فإذا هي تبتسم لي بخجل. وقفت عند مسافة قريبة مني. . وسرت باتجاهها حتى حاذيتها وتجرّأت. . أتوسّلها: مرحباً.

وعاتبت نفسي على عجالها، ذلك أنّ الفتاة لم تجب. . ولا يبدو عليها أنها قد سمعت صوتي الذي كان أقرب إلى الهمس منه إلى البوح المعلن.

لكنّ إصراراً عنيداً كان يلحّ عليّ ويتحدّاني. . ويدفعني بشكل سحري نحوها. .

جلست إلى جانبها بصمت تعمّدت الظهور بمظهره.

. . وابتسمنا معاً. . تبادلنا مشاعر على صفحة زجاج نافذة الحافلة. . وكلما كنت أحدّق في الزجاج، أراها تبتسم لي.

قلت. . إنها قد أحسّت بي. .

قلت. . سأتبعها حين تغادر الحافلة. .

قلت. . وأنا أشمّ عطرها يلامسني ويدخل في أنفاسي فيبعث النشوة في كياني كله. . سأجعلها تفكّر بي مثلما أفكّر بها. . وأستعجلها الودّ المتبادل.

فعلت ذلك بجرأة لم أعهدها فيّ. .

تحدّثت إليها طويلاً وأنا أسير إلى جانبها.

لم تجب بشيء. .

كانت تبتسم فحسب.

ورثيت لحالي حين قلت إنها ربما لم تكن تصغي إليّ.. وأنها تلعب بمشاعري، وأنها تسيء الظنّ بي.

انتابني هاجس ثقيل من الحزن..

وحين وصلنا إلى منعطف الشارع استدارت إليّ، ثم مدّت يداً ملساء طريّة تصافحني.

ـ هل سأراك غداً صباحاً؟

أومأت برأسها ولم تجب..

راقبتها وهي تغيب في زقاق فرعي.. التفتت.. وكانت الابتسامة جسراً بيننا.

وطاب المساء في مسكني.

لذّ الطعام ولذّت أنفاس الليل.. وتجمّلت السماء بالنجوم فيما كانت هناك أغنية يجيء لحنها عذباً والصوت فيها شجيّ، والكلمات تقرّب إليّ أفراحي.

كان الصباح متألّقاً من خلال تألّق وجهها.

جلسنا معاً على واحد من المقاعد كسرت إحدى أرجله.. فكانت تميل بجسدها كلما تعرّضت الحافلة لوقفة... وسكنت عند تلك اللمسات الملحّة.. ورحت أبادلها.. فتستجيب. وانشغلنا عن العمل ذلك الصباح..

غادَرَتِ الحافلة عند فسحة من الأشجار العطشى.. و.. لحقت بها.

اتّكأتْ على جذع إحدى الأشجار الشائخة.

سألتها:

ـ لماذا اخترت هذا المكان..؟

ولم أنتظر جوابها.. قلت:

ـ أريد أن أستمع إليك..

وعجبت حين كانت الدموع تحتبس في مقلتيها.. وبذلت جهداً لئلاّ أراها في هذا الموقف الحزين.

قلت: ألا أستحقّ جواباً منك؟

لامست يدي، وأومأت مشيرة إلى لسانها.

صُعقت.. حين عرفت أنها خرساء.. وتكفّلت بإعادة وجودي إلى سابق عهدها بي.

فتحت حقيبتها.. وتناولت قلماً وراحت تكتب بخطٍّ أنيق:

ـ بعد أن عرفت.. هل ستظلّ على صلة بي؟

أحسستُ بتساؤلها.. رجاءً..

وعَرَفَتْ ما يدور في بالي.. فخاطبتني على صفحة من دفترها:

ـ أرجوك.. قل كل ما تريد قوله.

وأردت أن أبوح بأسراري دفعة واحدة، غير أنني اخترت ألاّ أعجّل، وألاّ أستبق وعود قلبي ومشاغل فكري وهمّ حياتي. لكنني كنت أعرف جيّداً، أنني لن أبقي على شيء يحدّثني به قلبي.. ويصرّ عليه ذهني..

قلت: سأقول لك كل شيء في حينه.

ابتسمت. كانت لا تعرف غير الابتسامة جواباً معلناً.. يتحدّث إليّ، فاستقبلت ابتسامتها استقبالاً حسناً طابت لها مشاعري كلها.

.. ورحنا نلتقي كل يوم..

نعجّل اللقاء بلقاء لاحق.

وكنا نعرف أننا نحبّ بعضنا لكننا لم نقل الكلمة.. حتى نبقي على قدسيتها.. أو هكذا كنت أفكّر أنا على الأقل حين لم أقل لها كلمة «أحبّك» لأمد طويل..

إلى أن جاءت لحظة غائرة في العمق.. ونحن نجلس في ذلك المكان الموحش المليء بالأشجار العطشى... عندئذ قلت لها الكلمة بخشوع تام.. وأنا أمسك بأصابعها لئلاّ تهرب منّي خجلاً وأنا أقول لها «أحبّك».

فرحت.. رقص الفرح فوق وجنتيها، وبرقت عيناها بريقاً خاصاً.. وأمسكت بالشجرة العطشى تسقيها دموع فرح كانت تنتظره حتى جاء يدقّ أبواب قلبها..

كنت صادقاً وأنا أعلن عن حبّي لها..

صدق كنت أعهده في نفسي، مثلما اعتدت أن أعهده في تلك الفتاة الخجلى...

و.. مضى الحب يتجوّل في أيام مزهرة..

وفجأة.. جاء موعد ولم تأت. وآذن اليوم الثاني بنهايته دون أن أراها ذاهبة أو آيبة من عملها.

كانت الحافلة تسير كمن يسير في جنازة.

سألت عنها الأشجار العطشى أولاً، والحافلة والشارع الذي كنا نفارق بعضنا في منعطفه.

سألت قلبي وعقلي.. فلم يسعفاني بغير الأسى.

سألت عنها الزمان والمكان.. المسكن والدائرة ونسائم الصباح والمساء، غير أنني لم أهتد إلى نتيجة تزيل عنّي قلقي. وتوقّف هذا النزف الذي يواجه قلباً جريحاً.

.. وبدأت انطفىء شيئاً فشيئاً.. كمصباح نفد وقوده.

بدأت أشيخ..

وبدأت أفتّش في عتمة النهار عن فتاة أحبّها.. تضيع، تضيع في دائرة هذا العالم الذي راح يضيق.. يضيق.. وأنا أحسّ بالاختناق يلتم ويندفع ويضغط بشدّة فوق أنفاس حبّي الأخرس..

بغداد